مجلة الرائد

العدد : ٢٠٦ الموافق في شوال ١٤١٩ هجري ٢ / ١٩٩٩ ميلادي

إعلان حقوق الإنسان .. بعد خمسين عاماً : تاريخ .. وواقع .. وآفاق	بقلم : التحرير

احتفل العالم خلال الشهر الأخير من العام الذي انصرم لتوه ، بمرور خمسين عاماً على الإعلان التاريخي عن حقوق الإنسان ،.. وليست هذه هي المرة الأولى التي تعلن فيها حقوق الإنسان في هذا العالم .. ولكنها الأخيرة التي عرفها القرن العشرون .

وكان هذا الميثاق قد وُلد بين فرنسا والولايات المتحدة ، بدفع من هيئة الأمم المتحدة التي أسست عام ١٩٤٥ ، ودعت إلى وضع ميثاق دولي يهدف إلى ترسيخ السلام والأمن في العالم .

وقد أصبح هذا الميثاق اليوم وبعد مرور خمسين عاماً ، **الصيغة الوحيدة المعتمدة في المحافل الدولية للحوار فيم يخص حقوق الإنسان ، مع التباين الضخم والخطير في فهم هذه الحقوق من جهة ، وفي تطبيقها من جهة أخرى ، وفي استعمالها كأداة سياسية من جهة ثالثة .**

وكانت الأمم المتحدة قد اختارت شعارا براقا للاحتفال بهذه الذكرى وهو " **حقوق الإنسان حق للجميع** " .. وهو شعار يتحدى الواقع المر الذي يعيشه الإنسان .. خاصة وأن هيئة الأمم المتحدة وميثاقها لم يستطيعا تحقيق سعادة هذا الإنسان واطمئنانه في ظل الديمقراطية الغربية ، ولا ضمان حريته وإنسانيته في ظل الإستبداد الذي يسود بقية دول العالم اليوم !

كما يتحدى هذا الشعار أصحاب الهمم العالية من الصادقين المخلصين ، الذين يريدون الخلاص من هذا الواقع الكريه للإنسان على هامش الإعلان عن حقوقه ، خاصة ونحن نعيش في عصر الهيمنة من طرف واحد .. هذه الهيمنة التي تسمى بالنظام العالمي الموحد .. حيث تسود قيم الحضارة الغربية ، ويرسخ النظام العالمي الذي خطط له الغرب وعمل على تكريسه خلال خمسين عاماً ، ومن ثمَّ امتلك هو وحده السطوة والقوة والإعداد اللازم لحماية نظامه ذاك ، وقيمه تلك .. والتي تجعلنا نفكر كثيراً ونحن نقرأ إحدى فقرات الإعلان عن حقوق الإنسان ، والتي تقول : " إن لكل إنسان الحق في أن يعيش في ظل نظام اجتماعي عالمي ، يضمن له الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان .. " !!

وهذا وحده كفيل بوضع الكثير من إشارات الاستفهام على إعلان وضع قبل خمسين عاماً ، يأخذ بعين الاعتبار " النظام العالمي " الذي أصبح حقيقة ملموسة يعيشها العالم المحكوم اليوم من خلال التوجيه الإعلامي العالمي العام ..

إذاً نحن اليوم أمام مشكلة مزدوجة ؛ فنحن نعيش في عالم يُمرر جميع المشكلات من إطار رؤية

طرف واحد ، كما أنه - أي هذا العالم - وقفٌ على هذا الطرف لحل هذه المشكلات !! .

واقع حقوق الإنسان اليوم

السؤال الذي يجب أن يُطرح على بساط البحث في هذا الواقع . لماذا يشهد " الإعلان عن حقوق الإنسان " كل هذا الجدل العالمي .. وهذا الصخب ؟ .. ما دام يهدف - كما يبدو - إلى مصلحة الإنسان وسعادته ؟ .. وهل يختلف اثنان في هذا العالم على أن الحرية والعدل والمساواة ، هي أهداف سامية للوجود الإنساني في هذه الأرض؟.. أم أن منبع الخلاف يتعلق بفهم هذه الحقوق ، وطريقة استخدامها ، وانفراد حضارة واحدة بصياغة هذا الإعلان. وذلك على الرغم من أخذ الذين وضعوه في حينها آراء مجموعة من أبرز الشخصيات في الأمم المتحدة من الذين ينتمون إلى حضارات أخرى ، وأمم أخرى ؟ !! .

وإذا فهمنا الإجابة عن هذا السؤال .. هل يمكننا فهم ملابسات الوضع الحالي للإنسان ، وللإعلان عن حقوقه ، في عالمنا اليوم .. خاصة وأن هذا الإعلان لم يكن إلا مشرعاً مكوناً من جزئين :

١. **عولمة هذه الحقوق على الرغم من الحواجز الثقافية والدينية في العالم.**

٢. **جعله هدفاً أساسياً يُطالب به كل إنسان .**

وقد استخدم هذا الفهم الأوروبي للإعلان عن حقوق الإنسان ، من كافة فئات المجتمع الغربي ، كل كما يحب ويشتهي :

- فالساسة استخدموا " حقوق الإنسان " سوطاً يشهر في وجه الدول والجماعات التي لا يعجبهم سلوكها ، كذريعة فعالة للتدخل في شؤونها وبكل طريقة ممكنة .
- والمخلصون الصادقون .. نظموا أنفسهم ضمن هيئات ومنظمات دُعيت في معظمها منظمات غير حكومية ، أو إغاثية .. ترصد أوضاع حقوق الإنسان في العالم والمنافحة عنها .
- وبين هؤلاء وأولئك التفّ الغرب من جديد على معظم دول العالم ، وعاد يحمل المساعدة والدواء لتلك الدول التي نكبت باستعماره لها ..لتكون هذه المساعدات عودة للاستعمار بشكل جديد ؛ باسم الدفاع عن حقوق الإنسان ، وحمايتها ، ورعايتها .

ولم يتورع الساسة الغربيون عن استخدام المخلصين من أبناء شعوبهم في سبيل الالتفاف من جديد على العالم الذي كانت جيوشهم العسكرية قد دمرته بعدما افتتحته على أيدي المبشرين ، فجاءت حضارتهم المهيمنة ثقافياً لتدُكّه عن طريق غزوه على أيدي المنظمات الإنسانية !!

نحن إذن أمام إعلان غربي ، ذي قراءة غربية ، يستخدم حسب المصلحة الغربية !!.

وقد كان ذلك سبباً رئيسياً في تداعي الأصوات من كل حدب وصوب في مواجهة هذا الطغيان الحضاري ، للحفاظ على المقومات الذاتية لمختلف الحضارات المتعايشة اليوم في عالمنا أمام سطوة النظام العالمي الجديد الذي يريد أن يصهر في بوتقته كل شيء .. والذي يرمي إلى الالتفاف على هذه الأمم وهذه الحضارات ليمتص ثرواتها ، وليتصدق عليها بما فاض عن حاجته ، شريطة ارتباط ذلك بامتصاص مزيد من الثروات من جهة ، وبالتزامها بمفهومه الخاص عن حقوق الإنسان من جهة ثانية .

إلا أن الغرب الذي يمارس هذه الهيمنة هو ذاته متورط في أبشع صور انتهاك حقوق الإنسان الفردية والجماعية ، السياسية والعسكرية .. عن طريق تواطئه مع عامة الحكومات في دول العالم .. ويُثبت ذلك ما يُكشف يومياً عن وثائق الدعم العسكري والسياسي لتلك الحكومات التي تسوم شعوبها سوء التقتيل والعذاب .

وإن الصورة الشعاعية لحقوق الإنسان في العالم لتُبدي لنا حالة مرضية مستعصية على الشفاء :

فـ ١,٣ مليار إنسان يعيشون تحت مستوى الفقر ، على أقل من دولار واحد يومياً ، و ٣٥٠٠٠ طفل يموتون يومياً جوعاً أو مرضاً .

في البلقان حدثت إبادة جماعية تحت سمع وبصر العالم ، قُتل فيها مئات الآلاف ، وتم اغتصاب عشرات الآلاف من الفتيات والفتيان ، وجرت عمليات تطهير عرقي أمام مرأى من الأمم المتحدة وحلف شمال الأطلسي اللذين لم يحركا ساكنا حتى فرغ الصرب من مهامهم القومية في البوسنة والهرسك !!

في غالبية الدول الآسيوية وفي معظم دول أمريكا اللاتينية يتبع نظام الاعتقال والتعذيب دون تهم ، والسجن دون محاكمة .

وفي معظم دول أفريقيا تجري حروب أهلية تحصد عشرات الآلاف ، وتُرتكب فيها الفظائع باسم شعارات الفصائل والدول المتناحرة .

في مجمل دول أوروبة الغربية ، يتنامى انتهاك حقوق الإنسان المهاجر بشكل لم يعد من الممكن التكتم عليه ، ففي فرنسا يتم اعتقال المهاجرين ، واعتقال كل من يتعامل معهم من الفرنسيين ، وتمنع المهاجرات من حقهن في اللباس الشرعي الخاص بدينهن الإسلامي .. ويمنعن في ألمانيا وفرنسا من العمل في الأجهزة الرسمية للدولة حتى لو كن من أصحاب البلاد الأصليين .

٩٠% من رجال الشرطة الألمان يرفضون وجود الأجانب ويعتقدون في ضرورة طردهم من

البلاد .

قامت الحكومة الإسبانية بتخدير مجموعة من المهاجرين المعتقلين وخلال أكثر من عامين وذلك لتسهيل إخضاعهم وترحيلهم من إسبانية.

في إسبانية يُعتقل المهاجرون غير القانونيين لدى عبورهم لمضيق جبل طارق ، ويجردون من ملابسهم ويعاملون وكأنهم مجرمون من الدرجة الأولى !!

في الولايات المتحدة الأمريكية تغتصب امرأة كل ثلاث دقائق ..(٨٠ % من جرائم الإغتصاب تتم في محيط الأسرة) .. ، ٨ ملايين امرأة تعيش وحدها مع أطفالها دون معيل (٨٥% من النساء يعشن وحيدات دون معيل أو مساعدة من الدولة) ، ٢٧% من المواطنين يعيشون على حساب النساء ، ٤٠٠٠ امرأة يُقتلن كل عام أو يقضين نحبهن ضرباً .

في إسبانية قدم عام ١٩٩٥ ثمانية عشر ألف بلاغ عن الاعتداءات الجسدية بالضرب المبرح في مدريد وحدها . وفي عام ١٩٩٧ قُتلت ٩١ امرأة على يد الرجل الذي تعيش معه .

في الصين يُعد المعتقلون المستعبدون لدى السلطة في السجون بعشرات الملايين .. وتوقع أحكام الإعدام حتى في حق من ارتكبوا جرائم السرقة .

في المكسيك وكولومبيا وكوريا الشمالية والبيرو والبرازيل .. يتبع التعذيب كأسلوب نظامي دائم ، ويتم اختطاف وقتل الصحفيين وأصحاب الرأي .

في البرازيل على وجه الخصوص تقوم " فرق الموت " .. بقتل الأطفال المشردين في الشوارع والذين يزيد عددهم عن أربعة ملايين طفل ، وذلك لتخفيف عبء مسؤوليتهم عن الدولة !!.

وفي معظم الدول العربية والدول الاسيوية ودول أمريكا الجنوبية تكبت الحريات وتقهر النساء وتتم حالة من الكبت الجماعي ،؟ والاستبداد المطلق بالشعب ، ويضرب حصار مطلق على جميع نواحي الحياة الإنسانية والاجتماعية والفكرية .

وماذا عن موقفنا ؟

عجبت أشد العجب وأنا أتابع من خلال وسائل الإعلام العربية والإسلامية ، من احتدام الحوار والجدل بين مواقف أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها مضحكة من قضية الإعلان عن حقوق الإنسان .. فبينما ناقش البعض ضرورة التزام هذا الإعلان جملة وتفصيلاً في بلادنا ، كان آخرون يرفضونها لأنها على سبيل المثال تمنح العمال حق الإضراب !!! بل لقد قال قائل " إن هذا الحق غير مشروع من

وجهة نظر الإسلام " !!!. وقد أدى هذا التأرجح بين أقصى اليمين وأقصى اليسار في مناقشة هذه القضية إلى بلبلة لدى الإنسان العربي المسلم ، الذي ضرب صفحاً عن هذا الموضوع باعتباره واحداً من كثير من موضوعات يُسيء سلوك وسائل إعلامنا استعمال الحرية في طرحها لتُصبح عبئاً على الفكر وعلى الإنسان .

إن إعلان حقوق الإنسان بملابسات نشأته ، والواقع الذي هو عليه اليوم ينبغي ألا يخرج عن إطار كونه مشروعا إنسانياً حضارياً عاماً، فيه ما يمكن لكل حضارة أن تتوافق في بعض أسسها معه ، وفيه ما يحق لكل حضارة أن تعلن عن رفضها له .

وتكمن خطورة " إعلان حقوق الإنسان " هذا اليوم ، وبعد مرور خمسين عاماً على طرحه على ساحة المجتمع الدولي، في أنه أصبح لغة الحوار الوحيدة المقبولة سياسياً ودولياً ، بل لقد أصبح القاعدة الرئيسية التي يجب أن تبنى فوقها جميع قواعد الفكر والسلوك لدى الدول والجماعات والأفراد ، بل أكثر من ذلك كله لقد أصبح المقياس الوحيد لدى المحافل والمجتمع الدولي ، المُمثل بالطبع بدول الغرب المهيمنة على نظامها العالمي الموحد ، الذي ينبغي أن تمرر منه سلوكيات الآخرين ليفوزوا برضى هؤلاء .. والذي يمنح هؤلاء الحق في التدخل عسكرياً أو سياسياً أو اقتصادياً ، وباسم " حقوق الإنسان " في مصائر هذه الدول أو الجماعات أو الأفراد .. وأخطر ما في ذلك على الإطلاق هو أن قراءة واقع هذه الدول والجماعات والأفراد ، لا يتم إلا من منظور غربي ، وبفهم غربي يتطابق مع قيم الحضارة الغربية وحسب .

ونحن ندعو إلى قراءة إسلامية جديدة وخاصة لهذا الإعلان تكون بمثابة غربلة متأنية ، على ضوء معطيات هذا الواقع الذي قدمنا بعضا من صور انتهكات حقوق الإنسان فيه وعلى كل صعيد .

وإن تميزنا نحن المسلمين بهوية حضارية لا يمكن لأحد نكران وجودها في عالم اليوم ، ومهما تنكب أبناؤها عن حمل الأمانة في ريادة العالم من خلالها ، إن هذا التمييز يجعل في أعناقنا عبئاً ثقيلاً يتمثل اليوم في عدم الإسراع في رفض كل ما يأتينا من الخارج ، وعدم التسرع في قبوله جملة وتفصيلاً ، بل إن لدى حضارتنا من المناعة ما يؤهلها لطلب الحكمة ولو كانت في أقصى الأرض ، وهي التي استطاعت استيعاب جملة من الحضارات العالمية في إطار التسامح ، والذي هو سمة أساسية في حضارتنا ، والذي حُرمت منه مجمل الحضارات الأخرى مهما ادعت غير ذلك !!!

وعند معالجتنا لقضية الإعلان عن حقوق الإنسان ينبغي أن نحدد إذا كانت هذه المعالجة تتم رداً

على الغرب ، أم بحثاً عن مخرج إنساني لما يعانيه الإنسان اليوم ، أو وقوفاً شجاعاً أمام أنفسنا وضمائرنا ، فكيف بنا ونحن ما زلنا تبعاً للغرب في فكره وثقافته ، وفي صناعته وزراعته .

وحقوق الإنسان هذه - كما يقول الدكتور أيمن ادلبي - ليست إلا سلعة فكرية قديمة جديدة ، للتصدير والبيع ، ككل سلعة ولدت في أوروبا وصنعت فيها وصدرت منها ، ثم تبناها العرب كما تبناها غيرهم من الأمم ، ثم ضحوا في سبيلها وباسمها بأجيال ضاعت تخبطاً ، بعد أن أسقطناها على حياتنا جملة وتفصيلاً دون تدبر ولا تبصر !.

كما يجب أن نعي تماماً أن السيطرة الغربية على عالم اليوم ، لا يعني أنه كان يسيطر على مقاليد البشر منذ خلقهم الله ، كما لا يعني أنه سيستمر في هذه السيطرة إلى الأبد ، فإنما هي دورات حضارية ، وأيام يداولها الله بين الناس ، فلا ينبغي أن يحول انهزامنا وشعورنا بالنقص دون معرفة هويتنا ، بل الواجب يقتضي بذل الجهود الفردية والجماعية للارتفاع بمستوياتنا إلى ما يتطلبه ديننا وحضارتنا وعصرنا.

وينبغي أن لا يكون رفضنا لبعض ما ورد في إعلان حقوق الإنسان تعبيراً عن تقوقعٍ وانخذالٍ أمام هيمنة الغرب ، ولا عن عجزٍ أمام طروحاته .. فنحن لا نرفض الأسس الإنسانية أو الحضارية المشتركة بين جميع أمم وشعوب الأرض .. بل لابد من وجود هذا القاسم المشترك بين الجميع حتى يتم التفاهم وتبادل الفكر ، وحوار الحضارات .

إلا أننا ونحن نفهم هذه الأولويات يجب أن لا نغمض أعيننا عن الانتهاكات الخطيرة التي يتعرض لها الإنسان في بلادنا وخارجها لأن تمتعنا بالحقوق الإسلامية الإنسانية كأفراد وجماعات ، وتحقيق قدر لا بأس به من الكرامة الإنسانية في مجتمعاتنا ، لا يعني أن نسكت عن الشرخ الكبير في تعاملنا دولاً وجماعات مع قضية حقوق الإنسان، والذي ترتب عن الشقاق النكد بين الإسلام وبين المسلمين ، فكلما ابتعد هؤلاء عن دينهم تخبطوا في ظلمة الجاهليات والعادات ، وخالفوا القواعد الكبرى التي أمر بها الإسلام بمعاملة الإنسان من خلالها .. ولا أستثني من ذلك قضية المرأة .. والطفل على وجه الخصوص ، ففيهما يتجلى الشقاق النكد بين حاضرنا وبين مبادئنا .

فالقضية بالنسبة لنا ليست إلا محاولة للإفادة من كل خير يمكن أن يصيب الإنسان على هذه الأرض ، ما لم يكن خيراً يراد به الشر ، وما لم يُستخدم من خلال الشعارات البراقة لخدمة أهداف الاستعمار لإخضاع أمم الأرض ، وامتصاص خيراتها وثرواتها ، تارة عن طريق القوة العسكرية ،

وتارة عن طريق القدرات الاقتصادية ، وثالثة عن طريق السطوة الإعلامية .

فخلافنا محصور في طريقة فهم الغرب لإعلان حقوق الإنسان والطريقة الفجة التي يستعملها في معالجتها ، والإزدواحية الأخلاقية التي لم يعد يستحي من ممارستها في كافة أنحاء الأرض بما فيها بلاده .

ونحن مدعوون إلى إحداث ثورة حقيقية في طريقة فهم قواعد السلوك الحضاري المهيمن في عالمنا اليوم ، كحضارة متميزة ، كما أننا مدعوون للوقوف عند هذه الشعارات والتحديات الكبرى المطروحة على ساحة الوجود الإنساني ، والتي تضرب عرض الحائط فهم عقائد وفكر الحضارات الأخرى .

كما أننا مدعوون إلى قراءة هذا الإعلان ، قراءة إسلامية واعية قادرة على الجمع بين أُطُرنا العقيدية والأخلاقية ، والقاعدة الإنسانية المشتركة ، دون أن ننسى ملابسات نشأة هذا الإعلان ، ولا واقع استخدامه اليوم ، لنستطيع أن نُسهم مساهمة حضارية واعية في الدفاع الصادق عن إنسان اليوم الضائع تحت وطأة الشعارات البراقة ، لعلنا نتوصل إلى صيغة عامة للتفكير ، وقواعد مشتركة لدراسة وتمحيص كل ما يغزونا به الغرب .. على أن نمرره من بوتقة اقتناعاتنا ، ونخضعه لذاتيتنا وخصائصنا ، وعلى أن نشعر بشيء من الكرامة التي يجب أن نتمسك بها أمام هذا الطغيان الذي يمارسه الآخرون على وجودنا ، وإنساننا ، وطرق تفكيرنا ، وحاضرنا ومستقبلنا .. وأن نعلم أن هذا الطغيان ماكان ليشكل خطراً حقيقياً في حياتنا لولا أن فتحنا له الأبواب ، وتركنا الحصون دون رعاية ولا حماية ولا حراسة !! .